وقضى العدل فيهم للرعايا ان يصيروا خدامها الامناء
ملك السرب مات قتلاً واضحى قاتلوهُ بقتلهِ احياء
ضلَّ مَن يحسب الرجال ارقاء ومن يحسب النساء اماء
لم يجزْ سيدٌ ولا جار الاَّ بين قومٍ لا يعرفون اجتراء

القاهرة نقولا رزق الله

عمران العراق

العلم والتعليم

لا نعلم كم عدد العارفين بالقراءة والكتابة الآن في ولاية بغداد بالنسبة الى عدد الاميين ولكن اذا قسنا تلك الولاية بسائر الولايات العثمانية ترجح لنا ان العارفين بالقراءة والكتابة فيها كانوا منذ اربعة آلاف سنة اكثر منهم الآن بالنسبة الى سائر السكان كما ان عمران بلادهم كان ارقى مما وصل اليهِ في هذا العصر . ولو لم يكن لذلك مثيل في القطر المصري لعسر علينا تصديقهُ لكن القطر المصري قد نهض منذ عشرين سنة واذا استمرَّ عشرين سنة اخرى سائرًا في خطة ارتقائهِ لم يبقَ لنا سبيل للشكوى من تأخرهِ

وقولنا ان بلاد العراق كانت منذ اربعة آلاف سنة ارقى عمرانًا مما هي الآن لا يصدَّق بما لم تقم عليهِ الادلَّة وهذه الادلَّة متوفرة الآن بعد ان كُشف كثير من مكاتب البابليين وقرئ ما فيها من الكتب . وصفائح تلك الكتب ليست من الورق ولا من الرق ولا من البردي بل من الخزف ولذلك قاوت الدهر كل هذا الزمان والكتابة دقيقة جدًّا تتعذَّر رؤية بعضها من غير بلورات مكبِّرة وهي منقوشة نقشًا قبل شيِّ الخزف

وقد عقد الاستاذ سايس فصلاً مسهبًا في كتابهِ عن بابل واشور تكلَّم فيهِ على التعليم عند البابليين فقال ما خلاصتهُ

شاع التعليم في بلاد بابل من عصر السماريين وقد وجدت صفيحة لتعليم الكتابة وفي اعلاها القاعدة التي يتعلم التلميذ الكتابة عليها ويقال فيها " النجيب في المدرسة يرتقي كالفجر " وكان البنات يتعلمن القراءة والكتابة ومبادئ العلوم كالصبيان . وقد وُجدت مكاتيب كتبتها النساء من ذلك كتاب كتبتهُ امرأة الى ملك مصر وجد بين صفائح تل الامرنة . ويظهر من رقيم كتبهُ رجل الى خطيبتهِ او عشيقتهِ انها كانت تقرأ وتكتب لانهُ يقول لها فيهِ

ما ترجمتهُ " الى السيدة كسبية هذا ما يقولهُ جميل مرودخ لتعطكِ الهة الشمس الحياة الابدية اني اكتب اليك لاسأل عن صحتك فتكرمي عليَّ بالجواب وقد اتيت بابل ولكنني لم اركِ فانشغل بالي . حينما يأتين اليها ارسلي اخبريني حتى اطمئن تعالي في شهر مرسفان ودام بقاؤكِ للداعي

وقال الملك اشور بنيبال انهُ تعلم في القسم المختص بالنساء من القصر لكن الذين علموهُ كانوا رجالاً

ولم يكن تعلم القراءة والكتابة بالامر السهل لكثرة الحروف او العلامات الدالة على الحروف والكلمات ولكثرة المشابهة بينها ولو اختلفت معانيها ولكثرة الكتابة اساليب واختلاف الحروف باختلافها . وكان ينتظر من التلامذة ان يتعلموا ذلك كلهُ وليعض حروفهم اكثر من لفظ واحد وكانوا يستعملون بعض العلامات للدلالة على المعاني من غير التجاء الى الحروف الهجائية وكان لابدَّ لهم من تعلم اللغة السمارية مع اللغة البابليَّة اي السامية او العامية ومن كلماتهم ما كان يكتب بحروف سمارية ويلفظ كأنهُ مكتوب بحروف بابليَّة

والظاهر انهم كانوا يعتنون بتعليم اولادهم لان كتاباتهم الباقية الى الآن قليلة الغلط اللغوي وتكاد تكون خالية من كل غلط في التهجئة . وكتب التدريس غاية في الجودة وحسن الاسلوب وفيها كل ما يلزم لتسهيل العلوم وتقريب تناولها

وكان عندهم قواميس للغة السمارية وتفسيرها باللغة البابليَّة اي الساميَّة وكتب صرف ونحو ذكرت فيها قواعد اللغة السمارية باللغة السامية . وكتب للمطالعة مشحونة بفصول وقطع مقتبسة من الكتب البليغة واكثرها باللغة السمارية ولكن تذكر معها ترجمتها باللغة العامية اي لغة بابل او اللغة الساميَّة وعندهم ايضاً تفاسير لكتب المؤلفين الاقدمين فسروا فيها ما اشكل من الفاظها وعباراتها وما غمض من معانيها . وكان التلامذة يكتبون التمارين اما عن قاعدة توضع امامهم او من ذاكرتهم فيتمرنون بذلك على الخط والتهجئة ويستفيدون من معنى ما يكتبونهُ وبعض هذه القواعد تاريخي او جغرافي فيتعلم التلامذة بعض الامور التاريخيَّة او الجغرافية وهم يتعلمون الخط والتهجئة . وبعضها شعر او نثر بليغ فيتعلمون البلاغة وهم يتعلمون الخط

ومن رأي الاستاذ سايس ان دقة الحروف التي كانوا يكتبون بها تدعو الى تبصر البصر لان منها ما لا يرى الاَّ بالبلورات المكبرة ولكنهم كانوا يكثرون من ترويض اولادهم في الخلاء فيعود بصرهم الى رؤية الاشباح البعيدة

وكان في الكتاب من كتبهم صفائح كثيرة كل صفيحة منها بمثابة فصل قائم بنفسه ويكتب في آخر كل صفيحة عدد سطورها والكتاب الذي هي منهُ واول سطر من الصفيحة التي تليها حتى لا يقع خطأ في جميع الصفائح بعضها مع بعض . ويطلق على كل مجموعة من هذه الصفائح اسم الكلمة التي تبدئ بها الصفيحة الاولى منها فيقال مثلاً في آخر الصفيحة الرابعة من صفائح خبر الخليقة " فيها مئة وستة وار بعون سطرًا وهي الصفيحة الرابعة من الكتاب الذي فاتحتهُ "الذي لم يعلن في الاعالي" " ويتلو ذلك السطر الاول من الصفيحة التالية . وكان عندهم فهارس كتبوا فيها اسماء الكتب التي في مكاتبهم واسماء مؤلفيها واول سطر من كل كتاب منها وكانوا يرتبون الكتب على رفوف في المكاتب وقد وجد المسيو ده سرزك ٣٢٠٠٠ كتاب منها في جنوبي بلاد الكلدان وكانت لم تزل على ترتيبها الذي رُتبت فيهِ منذ الفين وسبع مئة سنة

والمواضيع التي الفوا فيها كثيرة مثل التاريخ والجغرافية والشريعة والمراسلات العمومية والخصوصية واللغة وعلم الحيوان والجماد والفلك والتنجيم وعلوم الدين . واضافوا الى ذلك البحث في العيافة والعرافة وما اشبه من العلوم الخرافية . ووجد في مكاتبهم دواوين شعرية وكتب ادبية ونسخ من الحجج والصكوك والشروط والاحكام الشرعية والكشوف عن المقتنيات فكانت مكاتبهم بمثابة الكتبخانات والدفترخانات تحفظ فيها كتب العلماء والادباء وسجلات الولاة والقضاة

وكان في كل مدينة كبيرة مكتبة من هذه المكاتب وكتّاب او امناء يقومون على حراسة كتبها ونسخ ما قدُم عهدهُ منها و تصحيحهِ او تأليف كتب جديدة . ويراد بالتصحيح اعادة الحروف التي طمست لقدم عهدها وكان الكاتب لا يقدم على تصحيح حرف من ذلك الاَّ بعد ان يثبت الصورة التي وجدهُ فيها والصورة يظن انها كانت لهُ . وكان هؤلاء الكتبة غاية في التدقيق والامانة فلا يلقون الكلام على عواهنهِ ولا يأنفون من الاعتراف بالجهل اذا جهلوا شيئًا

واذا حارب ملوكهم بعضهم بعضًا قتلوا الرجال واستحيوا الكتب لاعتقادهم انها في حرز الالهة . فكانوا ينقلونها من مدينة اخرى كانها كنوز ثمينة ويضعونها في هياكلهم غالبًا ولذلك كان نسخها والقيام على حفظها من الاعمال الدينية التي تنيل فاعلها رضى الالهة وغفران ذنوبهِ

وكانت المدارس تُبنى الى جانب المكاتب حتى يستفيد الطلبة من مطالعة الكتب . واتسعت مدارسهم على مرور الايام حتى صارت كليّات جامعة كالكلية التي ذكرها المؤرخ سترابو وقال انها كانت في ضواحي بابل والظاهر انها كانت لتعليم صناعة الطب خاصةً كما يظهر من كتاب طبي وجد فيها وهو الآن في دار التحف البريطانية

ولشيوع التعليم في بابل كثرت اساليب الخط ولم تعُد لهُ طريقة واحدة كما في البلدان

التي ينحصر العلم فيها في طبقة مخصوصة من الناس . وقد وُجدت نسخة من كتاب الخليقة نسخها ابن رجل فقير من الذين يُستخدمون لري الارض . فاذا تعلَّم اولاد الاجراء الفقراء القراءة والكتابة فذلك دليل على ان التعليم كان شائعاً تمام الشيوع . ويستدلُّ من بعض الحجج والصكوك ان العبيد كانوا يحسنون القراءة والكتابة ايضاً

ولم يقتصر تعليمهم على قراءة الكتب وكتابتها بل كانوا يضطرون الى تعلم اللغة السمارية القديمة بعد ان أُهملت ولم يعد يتكلَّم بها الاَّ العلماء وصارت كالعربيَّة الفصيحة بالنسبة الى العاميَّة او كاللاتينية بالنسبة الى الايطالية والفرنسوية

وكان اولادهم يتعلمون اللغة السمارية كما يتعلَّم ابناء اوربا اليوم اللغة اللاتينيَّة او كما يتعلَّم اولادنا العربيَّة المعربة بحفظ قواعد الصرف والنحو ومطالعة كتب الادب ودواوين الشعراء واستظهار كثير منها الاَّ انهم فاقونا في كتابة لغتهم البابلية فكانوا يترجمون من اللغة القديمة (اي السمارية) الى اللغة الحديثة (اي البابلية او الساميَّة) وبالعكس ولا يزال كثير من التمارين التي كانوا يتمرنون بها على هذه الصورة لتعلُّم اللغة القديمة محفوظاً الى الآن

ثم انهم كانوا يتعلمون لغات الامم المجاورة لهم ولما انتشرت اللغة الارامية لغة سورية وصارت لغة التجارة كالفرنسوية الآن صار البابليون يتعلمونها ويستعملونها في تجارتهم كما يتعلم اولادنا اللغة الفرنسوية . واقام التجار الاراميون اي السوريون في بابل واشور وانشأوا فيها محلات تجارية واسعة كما اقاموا في مرسيليا وقرطاجنة ومصر في الزمن القديم وكما لا يزالون يقيمون حتى الآن في مراكز العمران فترى بيوتهم التجارية في الاسكندرية ومرسيليا وباريس ولندن ومنشستر ونيويورك . ولما جاء ربشاق وزير سنحاريب الى اورشليم ليخاطب اهلها في امر التسليم على ما جاء في التوراة طلب رؤساء اليهود منهُ ان يكلمهم بالارامية لا باليهودية على مسامع الشعب فابى الاَّ ان يكلمهم باليهودية . ويستدل من ذلك انهُ كان يعرف الارامية واليهودية ايضاً مع انهُ لم يكن من علماء امتهِ بل من وزرائها

ثم ان اعتناءهم بتعليم اللغات دعاهم الى المباحث اللغوية ولا سيما الى البحث عن اشتقاق الكلمات في لغتهم واللغات المجاورة لهم وعن معاني الاعلام في اللغة السمارية القديمة

وكانوا يميلون الى علم التاريخ ولو لم يبرزوا فيهِ كالاشوريين . وآخر ملك من ملوكهم كان مؤرخاً وباحثاً عن تواريخ اسلافهِ وقد نقب في اطلال المدن القديمة ليقف على الحقائق التاريخية

الاَّ انهم لم يقتصروا على العلوم الصحيحة بل عكفوا ايضاً على العلوم الباطلة كالعرافة والتنجيم وكان للعرافة شأن كبير عندهم لانهم كانوا يميلون الى البحث عن العلل فاذا رأوا شيئاً

سبق معلولاً وجرى على نسق واحد مراراً قالوا انهُ علة لهُ فاذا دخل كلب بيتاً ولم يمرض احد من ابنائهِ او كان مريضاً فشفي قالوا ان دخول الكلاب الى البيت فال حسن وان دخل بيتاً فمرض واحد من ابنائهِ او كان مريضاً فاشتدَّ مرضهُ قالوا ان دخول الكلاب بيتاً شؤم على سكانهِ. واتفق ان ولدًا ولد من غير فم وانهدم بيت عند ولادتهِ فقالوا ان انهدام البيت نتيجة لازمة عن ولادة ولد من غير فم او مشوَّه الخلقة وهلم جرًّا. وقد جمعوا كثيرًا من هذه الحوادث الجزئية وبنوا عليها احكاماً كلية مع قلة الاستقراء فيها وقلَّة الرابطة بين ما ظنوهُ علة وما ظنوهُ معلولاً

ومن هذا القبيل علم التنجيم فانهم استدلوا بالحوادث الفلكيَّة على الحوادث الارضيَّة وربطوها بها لكن علم التنجيم لم يكن عقيماً لانهُ دعاهم الى تخطيط السماء وقسمة نجومها الى مجاميع وتعيين الابراج لنزول الشمس والقمر. وحسبوا اوقات الخسوف والكسوف بعد مراقبات كثيرة مدة سنين عديدة وكتبوا في النجوم ذوات الاذناب وفي اقترانات الشمس والقمر ومدة دوران القمر والزهرة. وقسموا السنة الى اثني عشر شهراً كلاً منها ثلاثون يوماً واضافوا اليها شهراً كل نحو ١٢٠ سنة لبزول الفرق وسمَّوا الشهور اولاً باسماء ابراج السماء وكان عندهم سنة قمريَّة وسنة شمسيَّة وحسبوا نجم العيوق مبدأً حسبوا منهُ بُعد الشمس للاستدلال على بدء السنة ثم جعلوا يحسبون بداءة السنة من الاعتدال الربيعي. وهذه الحقائق وامثالها علمت اكثرها من المكاتيب الباقية الى الآن بين آثار بابل واشور ومصر مثال ذلك كتاب كتبهُ طبيب اسمهُ ارادتانا الى الملك اسرحدُّون يقول لهُ فيهِ اما من جهة الرعاف فيظهر من تقرير الرب ماج (اي رئيس الاطباء او الحكيمباشي) انهُ حدث نزف كثير امس نحو المساء لان الرفادة لم توضع في مكانها بل وُضعت خارج المخرين فعاقت التنفُّس ووقعت حالما ابتدأ النزف فيجب ان توضع داخل المخرين فتمنع الهواء وتوقف النزف واذا شاء سيدي الملك فاني اذهب غدًا بنفسي وارشدهم الى مايجب عملهُ". وكتاب آخر كتبهُ هذا الطبيب الى الملك يقول فيهِ "الى الملك سيدي من عبدهِ ارادتانا سلام ابديٌّ للملك سيدي. ان حالة المصاب بالرمد آخذة في التحسُّن فقد وضعت رفادة على عينيهِ ونزعتها امس مساء فوجدتُ عليها صديدًا كرأس الخنصر. ليفرح سيدي الملك وليطمئن بالهُ فان الرمد سيشفى تماماً في سبعة ايام او ثمانية"

وكتب منجم اسمهُ ايبل استار الى ملك اشور وكان هذا الملك قد كتب اليهِ من نينوى ليرصد لهُ خسوف القمر وكسوف الشمس فقال "اما من حيث خسوف القمر الذي كتب اليَّ عنهُ سيدي الملك فقد اقمت الرصد على رصدهِ في اكد وبرسيبا ونبور" ثم يتلو ذلك وصف الكسوف لكن الكتابة محاة تعسر قراءتها الان. الى ان يقول "وقد امرني سيدي الملك

ان ارصد كسوف الشمس ايضاً فوجدت بعد المراقبة ان الكسوف للقمر لا للشمس وقد كان تاماً في بلاد الشام ووقع الظل على بلاد الاموريين وبلاد الحثيين وجانب من بلاد الكلدانيين "

ويظهر من ذلك انهُ كان عند البابليين مراصد كثيرة لرصد الافلاك وانهم كانوا يعرفون من علم الطب وعلم الفلك اكثر مما يعرف خلفاؤهم الآن وقس على ذلك سائر العلوم. فاين ضاع ذلك العمران وماذا حلَّ بهِ ولماذا لا ترجع البلاد الى عهدها الاول اذا لقيت من العناية ما لقيت منذ اربعة الاف عام حين كانت وسائط العمران على اقلها في الدنيا كلها

التدوين في الاسلام

لا يعلم على التحقيق اذا كان العرب قبل الاسلام دوّنوا شيئاً من آدابهم واخبارهم لغلبة الامية على سكان وسط الجزيرة اما في الاسلام فبدأ تدوين القرآن ثم تبعهُ تدوين الآثار وغيرها . اخرج البخاريُّ عن زيد بن ثابت قال ارسل اليَّ ابو بكر مقتل اهل اليمامة وعندهُ عمر فقال ابو بكر ان عمر اتاني فقال ان القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بالناس واني لاخشى ان يستحرَّ القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن الاَّ ان يجمعوهُ واني لارى ان يجمع القرآن. قال ابو بكر فقلت لعمر كيف افعل شيئاً لم يفعلهُ رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فقال عمر هو والله خير فلم يزل عمر يراجعني فيهِ حتى شرح الله لذلك صدري فرأيت الذي رأى عمر. قال زيد وعمر عنده جالس لا يتكلم . فقال ابو بكر انك شاب عاقل ولا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله (ص) فتتبع القرآن فاجمعهُ. فوالله لو كلفني نقل جبل ما كان اثقل عليَّ مما كلفني بهِ من جمع القرآن. فقلت كيف تفعلان شيئاً لم يفعلهُ النبي (ص) فقال ابو بكر هو والله خير . فلم ازل اراجعهُ حتى شرح الله صدري للذي شرح الله صدر ابي بكر وعمر فتتبعت القرآن اجمعهُ من الرقاع والاكتاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت لم اجدها مع غيره " لقد جاءكم رسول من انفسكم " الى آخرها فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند ابي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها اهـ

هكذا دُوّن اول كتاب واشرفهُ في الاسلام اما العلوم الاخرى فقد ذكر احد الثقات ان اول من ألَّف في المغازي موسى بن عقبة بن صغار التابعين وقال بعضهم ان التدوين لم يحدث الاَّ سنة سبعين للهجرة ويقال ان الصحابة دونوا شيئاً من الحديث . وفي صحيح